العصبيَّة

(تابع ما قبلهُ)

العصبية الدائمة الخلقية لتفاوت درجتها وتختلف قوتها بحسب مراتبها النفسيَّة فاساسها الانانية ومنها الروح السارية فيها ثم بعدها العصبية للاسرة ثم للعشيرة ثم للقبيلة ثم للامة ثم للنوع ثم للجنس. وكلما بعدت ضعفت والجنسية اضعف الجميع. هذا اذا تركت للفطرة دون تأثير للعوارض الخارجة الطارئة ولكن هنالك اسباباً تجعل المؤخر مقدماً والبعيد قريباً فربما يُذهب المرء نفسهُ ذبًّا عن امتهِ ووطنهِ او اسرتهِ وقبيلتهِ وهذا من الافراط فيها ولكنهُ محمود المغبة مشكور النقيبة قام عليهِ حفظ اصل النوع وبهِ اعتلت الفضيلة فاذا اختل مثل هذا تضعضع الكيان واضطربت الاكوان

لما تأصلت الغيرة الدينية في نفوس الاوربيين في القرن السادس للهجرة وتوجهت ابصارهم تلقاء فلسطين منبع اشعة النصرانية وعلموا ما يلاقيهِ الزائرون من العناء والاعنات كانت اقل نفحة من انفاس بطرس الناسك تذكي نار عصبية اندفع منها اتيٌّ عظيم على الشرق والشرقيين سال لهُ سيل الدم العرم يصلون حر النار لانقاذ البيت المقدس والمذبح المقدس والقبر المقدس من ايدي المسلمين

عصبية مذهبية ملية في غايات سياسية اذكاها امثال بطرس من زائري بيت المقدس المحرضين الهمم لانقاذهِ. صوَّروا للخاصة والعامة صوراً مختلفة متناهية في الفظاعة مثلوا بها حال المسلمين والاسلام في الارض المقدس صوراً اكبرها الوهم واعظمها الفكر وبرهنتها العصبية فتناقلتها بينهم الالسنة وتنقلت في الاحاديث فظهرت لديهم بمظهر الحقيقة على ابين مثال ولم تكن اختبارات عقلاء المهاجمين لاحوال المسلمين كافية لمحو تلك الصور من الاذهان لاسيما والخاطبون بتأييدها دائبون في الدعوة اليها حتى اذا خمدت الجذوة والطفأت الشعلة ووضح بعض الحق وارتفعت العقول تراخت العصبية وقلت الفائدة فلم يبقَ لذلك التأثير الهائل من الخاطبين اثر يبعث الحروب ويجر الويلات ولكنهُ نمق اثاراً وشي في الافكار من العصبية بقيت تصور لهم المسئلة الشرقية بصورها المختلفة

قلنا ان العصبية اذا تجاوزت حدها الى افراط وتفريط كانت مذمومة المغبَّة وخير احوالها ما انتهجت فيهِ الطريق الوسط ولكن لابدَّ لها في ذلك من مسيطر وقوة حاكمة عليها تراعي فيها الاحوال وتصرفها كيفما شاءت وتلك القوة هي العقل وهو قد تتسلط عليهِ امور تفيد اطلاقهُ

من عادات وشهوات وملكات بكيفيات نفسيات فيصدأ من هذه الطوارق ولا صيقل لهُ الاَّ التهذيب والتعليم والقدوة الحسنة . والقدوة قائمة على اتمها في الاصاغر بالنسبة الى الاكابر وفي العامة بالنسبة الى الخاصة . عنيت بالخاصة مَن بيدهم ازمة الامور في الحل والعقد والتربية والتعليم بقيمون العصبية الصالحة في هؤلاء حيث يسلكون منها النهج الصريح ويتلبسون بالمبدإ الصحيح فينسج المقتدون بهم على منوالهم وتأخذ العصبية الحقة حقها من النجاح . لا اقول بانحصار التربية فيمن ذكرت بل اقول بلزومها لهم وانهم احق بها واهل لها . منزلة الاكابر في النفوس من الجاه والنفوذ وبسطة العيش والقوة هي مطمح انظار من دونهم يتعلق بها حِل اهوائهم فيهم يتشبهون ويتخلقون كي يعدوا في عدادهم ويذكروا بينهم سنة جارية وحالة متبعة . فاذا سلك الكبراء طريقًا تبعهم فيهِ غيرهم ان خيرًا فخير وان شرًّا فشرٌّ (واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول) لم تشذ بقوم عن نهجهم السوى غير العصبية الجائرة التي يسوقها الافراط والتفريط وانك لتجد في العصبية قبل تجاوزها حدها كيانًا محفوظًا وامورًا متناسقة مستقيمة فاذا جاوزت حدها حصدت ما كانت جنتهُ قبل ادراكهِ فيذهب هشيمًا تذروهُ الرياح . وان الامة العربية لما ظهر فيها الاسلام ودعا في تعاليمهِ وشريعتهِ الى التآخي والتناصر في دفع المكاره واستجلاب المنافع قامت العرب امة حية تسعى لكيانها الديني بطريق لا يضر بل يحفظ لها كيانها الاجتماعي وضربت منها العصبية في النفوس فحفظوها فاستقامت لها الاحوال وانتظم المعاش وصعدت في رقيها حتى اصبحت المالكة ذات السلطة المطلقة . وللدين وآدابهِ الصحيحة وتعاليمهِ القويمة فيها المقام الاول وهو بعدُ في جدتهِ لم تشبه البدع والاهواء بشوائبها ولم تدنسهُ الاباطيل بخزعبلاتها حتى اذا القت الرئاسة مقاليدها للداعين اليهِ والقائمين بنشرهِ قام فيهم جماعة لم يتفقهم التهذيب باصولهِ ولم يستمسكوا من عرى الدين بشيء وكثير ما هم فتراجع سيرُ الناهضين في رقيهم ووقفت حركتهم شيئًا فشيئًا واخذت القدوة تمثل اعمال اولئك بصورة مستحسنة تفتن الناظرين اليها فيسرون على نهجهم بعاداتهم وتقاليدهم فمسخوا كثيرًا من القواعد الدينية وشوهوا بعض محاسنهِ وتراموا اولاً فاولاً في يداء البدع بين آفن يرى بالرئاسة دون مالهُ من الحق وذي سلطة دينية يأمل ان تتخذ اعمالهُ واقوالهُ حجة . فشذوا بذلك عن الاداب اللدنية والقواعد الدينية الصحيحة حتى تكوَّن مع طول الزمن وترامي المدة بدعٌ اذهبت نضرة الدين والقوم سائرون في طريق القدوة لرؤسائهم حتى تفاقم الامر واستعظم وتشوهت الحقيقة بندوب البدع وتملكت العصبية من طريق القدوة في نفوس حرجة لا تفقهُ غير التقليد

يصدع الوازع بهدايته وشريعته حين يرى الضلال غالباً والشقاء حاكماً فلا يزال في وعد ووعيد وبشرى وانذار حتى يستضيء بمشكاة هديه جماعة ممن فتح الله قلوبهم للايمان به فيستقيمون على سنة ولكن منهم من اخذ اليقين بلباب معرفته فتراءى لهُ الحق باجلى مظاهره فنبذ سنتهُ الاولى وعاداته وعصبيتهُ حتى نسخت من صحيفة ذهنه او كادت ويقينهُ يدافعها عنهُ الى ان يدفع شرها ونقوم في نفسه عصبية جديدة للحق وللهادي اليه ومنهم من ضعف يقينهُ شيئاً عن دفع مغالبة سننه القديمة وعاداته وعصبيته الاولى فكان به نزعة لحالته الاولى وعاداته وتقاليده القديمة ولا يزال يرمقها في افعاله واقواله من طرف خفي ويقرب اليها من حيث لا يشعر حتى اذا طال الامد وسار المقتدون به على منواله وضحت تلك النزعات وظهرت تلك التقاليد في مظاهر اجلى في اخلاف منها في السلف فتسترجع العوائد القديمة او ما يقاربها وترسخ بدعاً ثابتة فيقل اثر الاصلاح الذي صدع به ذلك الوازع الكريم وتجلي عادات مظهرها الديني والدين منها براء بهذا وذاك تتأصل البدع وملكاتها في النفوس وتستطيل بتقلص ظل الهداية ويعود الدين غريباً كما بدأ ويستحكم التقليد

هذا هو الشأن في كل امة وملة ما لم يقم من رجالها سائرون في سنة الاصلاح على النهج السوي الصراح لا تثنيهم عن عزماتهم نزعات تلك العصبية ولا تقليدات تلك العظمة

نشأت المدنية في العرب وهم في خلة يتوارثونها خلفاً عن سلف وهي العصبية القومية والتباهي في العشيرة فلما ظهر الاسلام احال تعاليمه العصبية الدينية فكان الحمية لها فبذلك سادت الوحي وتلقتها منتفت البرّة . وفي اثنتي عشرة سنة وبضعة اشهر وايام بعد انتقاله الى الرفيق الاعلى سارت الامة على الطريق المسنون اللاحب ولكن كان سيراً مع فتور يطرأ وشذوذ يحصل كلما بعد المدى عن زمن الوحي حتى رجع حكم الامة الى الملك العضوض وترعرعت الفتن وعلت جذوتها تراجعت تلك العصبية القومية بما بقي لها من الآثار والنزعات في النفوس وتنرمي التثقيف الديني وذهب التهذيب الشرعي والقت الامة مقاليدها الى اولي العصبية منها غير ناظرة الى امتجاعهم الشروط المطلوبة من الصلاح والاهلية خلا صبابة كصبابة الاناء من آدابها وتهذيبها وارتفع بالتدريج حق السيطرة والمراقبة المخول للامة على حاكميها واستبدّوا بالرأي والعمل وضربوا على يد كل معترض او ناشد بالله في نصيحته كما قتل من نصح احد خلفاء بني امية اذ قال لهُ وقد اطال خطبة الجمعة اطالة كادت تذهب وقت الصلاة الوقت لا ينتظرك والرب لا يعذرك . وقبلها وضع الحجاب وغلقت الابواب وعلقت السوط ورفع عبد الملك بن مروان سوطهُ على يد كل مذكّر لهُ بالمعروف او ناهٍ عن منكر . والعصبية تسهل كل امر من ذلك وتقعد كل قائم ولم

يكن من ثمة عاقل يجسران يتفوه ببنت شفة ضد المستبدين حتى تلاشت هذه العصبية بطبيعة هذا الاستبداد وقامت دونها اخرى تقاومها وتعارضها واخذ مسودة العراق قلوب السواد الاعظم غير انهُ بقي حشالة من العصبية الاموية قامت بها دولة الداخل في الاندلس وما زالت تحيا وتموت بالعدل والاستبداد حتى تلاشت وحل محلها غيرها كما كان مع العباسيين وقد تقدَّم ذلك كلهُ

قلنا ان النفع الذاتي والانانية سائقان الى النعرة مؤسسان للعصبية مقومان لها فاذا تقلص النفع اثر في اثرها واذهب من حشاشتها . وكما بعد النفع وطرأ الضر تراخت العصبية فاذا دام هذا حلَّ محل الحب كره ونفور . ولهذا كان الاستبداد في الدولة سبباً لبطلان عصبيتها ونفور النفوس عنها فتنقطع امها وتتقسم على نفسها والنفس بالطبع مسوقة لجلب المنافع ودرء المفاسد فهي تريد دفع المضرة بكل طريق ترى امامها مفرًّا من الذلة فتنازع السلطة المستبدة سلطانها وقد كان اوفى امرها ونكث فتلها الاستبداد ولا يقعد بها وهي في تلك الحال عن مثل هذه غير خوف يطرء بهمتها فاذا كان تألُّبٌ واتحاد وعصبية اخص واقوى لم يبقَ من الخوف ما يدفع الهمم عن تطلب المصلحة ودفع الجور وتمكن العصبية التي هي اخص منهم وبعبارة اخرى ان العصبية بانواعها اذا وقع منها قسم يدافع سارت النفس منها الى نوع آخر حيث لا تخلو نفس من عصبية

حب الاستقلال وتطلب العز من مقتضيات الانانية وهو في الحقيقة من العصبية القومية لجميع الاحاد وكما ان العصبية تكون لشخص في الامة والعشيرة تكون للمجموع الكلي من حيث هو مجموع فتجعل حكمها وامرها كلهُ شورى وهذا اول الفطرة وغاية التمدن فاذا انحلَّت عصبية الرئيس فإن بقي لغيره من الاشخاص عصبية جمعت حولهُ ذويها ونهضت بهم وان لم تكن رجعت الامة الى مجموعها وبعبارة اخرى رجعت الى انتظام هيئتها لادارة امرها فتحكم نفسها بنفسها ومنهُ الجمهورية

من آثار النفع الذاتي المؤسس على العصبية التضام والتلاحق والاجتماع حيث يبعث الفة تأنس بها النفس وتستوحش لبراحها فيحصل في قلب كل من المجتمعين الفة وبالتالي عصبية ولهذا كان الشتات في الامة وعدم الاتصال بين اجزائها موجباً لانحطاطها بفقدان عصبيتها فاذا بقي لها جهة جامعة بقي لها من العصبية بقدر ما تقتضيه تلك الجهة فالامة الاسلامية كان لها وئام وارتباط شديد ما دام لها اشتراك في اللغة يعني انها كلها ترمي الى اختيار لغة القرآن والسنة فلما بهذه الوحدة قوة في عصبية . ولقد كان العرب في دولتهم يؤيدون عصبيتهم

بنشر لغتهم في الاقطار حتى كانت ضواحي الهند والسند وربوع مرو وخراسان وهي لباب العجمة مقرًّا لائمة اللغة العربية وعلمائها ومنبتًا لفضلائها ولما ان ضعفت السلطة العربية وفشلت الدولة العباسية دولتها الكبرى فترت همة المسلمين في هذا السبيل فانحلَّت تلك العصبية وحل محلها عصبيات مختلفة فابعد ذلك الاتصال بين اجزاء الامة وافرادها واوهى التفريق عزها

فالعصبية خلق طاهر وخلة كريمة وهي مرقاة النجاح وسلم السعادة اذا اخذت طريقها الحق وانتهجت سننها العادل واخذت التربية والفضيلة زمامها وتولتا قيادها يغضان ظاهرها ويردان جماحها فلا تركب الشطاط ولا تألف الانحطاط وخير الامور الوسط (ومن قيد بالفضيلة قاد السعادة)

النبطية احمد رضا

قوانين الصحة في المشرق

من مقالة تليت على المجمع الطبي الجراحي في ادنبرج وطبعت في مجلة ادنبرج الطبية بقلم الدكتور يوحنا ورتبات احد اعضاء ذلك المجمع

ليس علم حفظ الصحة من العلوم الحديثة فان ائمة الهيجين يذكرنا بالعصر الذي كان اليونان والرومان يعبدون فيه الاهة الصحة هيجينيا بنت اسكولابيوس . واقدم من ذلك قوانين الصحة التي وضعها المصريون القدماء قبل التاريخ المسيحي بخمسة آلاف سنة او اكثر . ثم ان الاسراب التي اكتشفت في جزيرة كريت حديثًا وظهر انها تساوي في اتقانها ما بني من نوعها على قواعد العلم الحديث (وتاريخها ٣٠٠٠ سنة قبل المسيح) وقوانين موسى التي سنها لليهود وأدرجت في سفر اللاويين ومقالة بقراط في الهواء والماء والمساكن واطناب ابن سينا في الكلام على تدبير الصحة في ما كتبهُ — كلُّ ذلك يدلُّ على المنزلة الرفيعة التي كانت للقوانين الصحية في عيون اطباء الاقدمين . والمثل اللاتيني القائل ان " العقل السليم في الجسم السليم " يقابل قول العرب "العافية تاج على رؤوس الاصحاء لا يراهُ الاَّ المرضى"

ولقد صال ملاك الموت وجال في القرون المتوسطة فلم يبقِ ولم يذر وما ذلك الاَّ لعدم العناية بقوانين الصحة من مأكل وملبس ومسكن فكان فيه عظة وعبرة للعالمين . على ان الناس لم ينتبهوا لقوانين الصحة الانتباه الكافي الاَّ منذ عهد هفلند فشرعوا حينئذٍ في جمع مبادىء هذا العلم وتطبيقها على حاجات الافراد والبيوت والامة فكانت النتيجة استئصال